بصائر المعرفة القرآنية
عبد السلام مقبل المجيدي

المراحل التي مرَّ بها

خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

كيف تكشف لنا الآيات الأسرار الخفية بصورة واضحة دقيقة؟

المراحل التي مر بها خلق السموات والأرض (١)

خلاصة هادية في الجمع بين الآيات التي ذكرت خلق السموات والأرض

أ.د/ عبد السلام مقبل المجيدي

(١) هذا البحث مستلٌّ من مفصل تفسير سورة البقرة (المحور الأول) تفسير – بصائر الآيات (٢١-٢٩)، وسيطبع قريبًا إن شاء الله تعالى.

هل يمكن أن نقدِّم خلاصة هادية في الجمع بين هذه الآيات؟

الجواب: نعم! مرَّ الخلق الأول للسماء والأرض بستِّ مراحل تداخلت بعض تفاصيلها:

المرحلة الأولى: الدُّخانيَّة:

فالْمَادَّة الَّتِي خُلِقَتْ مِنْهَا السَّمَوَاتُ كَانَتْ دُخَانًا، ويدلُّ لذلك قوله في سورة فصِّلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وفي الوقت الذي كانت السَّمَوات فيه دخانًا خلق الله ﷻ الأرض، لتكون ملتصقة (مرتتقة) بالسَّماء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]، وهذا الدخان إمَّا أن الله ﷻ خلقه من عدم، وإمَّا أن الله ﷻ خلقه من مادة أخرى لا نعرفها، وإمَّا أن الله ﷻ خلقه من الماء الذي كان عرشه عليه ﷻ، وبهذا الاحتمال الثاني صرَّح بعض المفسِّرين، فقالوا عن البُخار: "أي: بُخار وسديم ارتفع من الماء الذي كان عرشه تعالى عليه"(٢)، وَذَهَبَ الْبَيْضَاوِيُّ ﷺ إلى أَنَّهُ أمرٌ ظَلْمَانِيٌّ(٣)، ولا يوجد عندنا دليل أن هذا البُخار كان من الماء الذي عليه العرش.

المرحلة الثَّانية: الفتق بعد الرَّتق:

كانت السَّمَوات والأرض رتقًا، ففتقهما الله ﷻ، أي: كانتا كتلة واحدة منسدَّة لا انفتاح فيها، فكانتا مرتتقتين (متلاصقتين)، كما أفاد ذلك قول الحقِّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ففتق الله ﷻ السَّماء في هذه الحالة.

ويمكن أن يكون هذا الاتِّصال عندما كانا مادة دخانيَّة واحدة، وربَّما كان هناك شيء آخر مع المادة الدُّخانيَّة، ويكون ذلك أشبه باتصال عناصر متعدِّدة مع كونها ليست جامدة، وقد

(٢) ينظر: تفسير السمرقندي (٣/ ٢٢٠)، تفسير القرطبي (١/ ٢٥٥)، اللباب في تفسير الكتاب (١٧/ ١٠٨).

(٣) ينظر: تفسير البيضاوي (٥/ ٦٨).

علمنا أن السَّمَوات كانت مادة دخانيَّة، لكن هل الأرض كانت مادة دخانيَّة؟ ثُمَّ فَتَقَ اللهُ ﷻ رَتْقَهَا أَيْ: فَصَلَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ.

ويحتمل أن الرتق أي الاتصال كان بعد استحالتهما عن الحالة الدُّخانيَّة إلى حالة أقوى تماسكًا كالحالة الجامدة.

ولا نستطيع الجزم بأن الفتق هو ذاته الذي يدعونه علماء الفَلَك (الانفجار العظيم)؛ إذ يحتمل أن الفتق كان بواسطة الانفجار العظيم، ويحتمل أنه كان بهيئة أخرى، فلا يوجد في الآية ما يلزم بأحد الأمرين، وفي كلِّ الأحوال فإن ما ورد في سورة الأنبياء هنا يبقى معجزًا؛ لأنه يحدِّث البشر عن أمرٍ لا يعرفونه، ولطالما اختلفوا فيه، والصُّور التي بعثها المسبار الفضائي (جيمس ويب) أحدثت ثورة تفكيريَّة جديدة حول أصل الكون، ومع كلِّ فرضية فإن ألفاظ القرآن دقيقة لا يمكن لأحد أن يعترض عليها إلا أن يعاند.

المرحلة الثَّالثة: مرحلة التَّمييز لتكوين كلٍّ من السماء والأرض:

فلما فتق الله ﷻ الأرض عن السماء ميَّز كلًّا منهما في خلقه وتكوينه، فكوَّن الله الأرض في هذه المرحلة، وقال عن تكوينها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت: ٩ - ١٠]، فخلق الأرض في يومين، وأكمل تكويناتها، فجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي يومين آخرين، وبذا خلق لنا ما في الأرض جميعًا، وتمَّ ذلك في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سواء.

المرحلة الرابعة: مرحلة التَّكليف للسَّماء والأرض:

فبعد المرحلة الثالثة استوى الله ﷻ إلى السماء وهي ما زالت دخانًا، فخاطبها الله ﷻ خطابًا تكليفيًّا: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

لاحظ قال لها وللأرض فكلاهما موجود، فقد خُلقتا في تلك الأيام الأربعة.

المرحلة الخامسة: بناء السماء:

فلما قالت السماء والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، وهو قد استوى إلى السماء، قضاهنَّ –كما في سورة فصِّلت المكِّيَّة– وسوَّاهنَّ –كما في سورة البقرة المدنية– ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]: ففتق الله ﷻ السماء عن الأرض من قبل، وفتقها في هذه المرحلة في ذاتها، فجعلها سبع سموات.

وفي هذين اليومين أيضًا ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]: أي: قدَّر أنظمتها وقوانينها، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، فخلق نجومها التي صارت مصابيح للسَّماء، **وفي هذه المرحلة** ﴿بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ [النَّازِعَات: ٢٧-٢٩].

وقد تتساءل: لكننا نعرف معنى السَّمك، وأنه الرَّفْعُ، فكيف يكون المعنى: رفع رفعها؟

الجواب: السَّمْكُ: الرَّفْعُ، وَالرَّفْعُ: جَعْلُ جِسْمٍ مُعْتَلِيًا، قال ابن عاشور ﷺ: "وَهُوَ مُرَادِفٌ لِلسَّمْكِ، فَتَعْدِيَةُ فِعْلِ رَفَعَ إِلَى (السَّمْكِ) لِلْمُبَالَغَةِ فِي الرَّفْعِ، أَيْ: رَفَعَ رَفْعَهَا، أَيْ: جَعَلَهُ رَفِيعًا، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِمْ: لَيْلٌ أَلْيَلُ، وَشِعْرٌ شَاعِرٌ، وَظَلٌّ ظَلِيلٌ"(٤).

والذي يظهر لي أن السَّمْكَ هنا يدلُّ على الطُّول في الرَّفع من قولهم: المَسمُوكُ من الرِّجالِ: الطَّوِيلُ، والمَسمُوكُ من الخَيلِ: الوَثِيقُ الجَوانِحِ، وبَيتٌ مُستَمِكٌ، ومُنْسَمِكٌ: طَوِيلُ السَّمْكِ، وسَنامٌ سامِكٌ تامِكٌ: تارٌّ مُرتَفِعٌ عَالٍ(٥). فيكون المعنى: رفع طول ارتفاعها، والمراد: أنَّها مرتفعة، وهي في ذاتها ذات جسمٍ طويل مرتفع، وبذا يرفع جسمها الدُّخانيَّ عن

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٥).

(٥) تاج العروس (٢٧/ ٢١١).

الأرض، وهذا نوعٌ من أنواع الفتق الأربعة، وقوله: ﴿سَوَّىٰهَا﴾ [الشَّمس: ٧] يدلُّ على التَّعْدِيلِ وَعَدَمِ التَّفَاوُتِ، وَهِيَ جَعْلُ الْأَشْيَاءِ سَوَاءً، فعَدَّلَ أَجْزَاءَهَا(٦)، وذلك يدلُّ على إتقان الصُّنع.

والأصل أن نحمل الألفاظ على ظاهرها، فالظَّاهر هنا أن السَّماء كانت موجودة، وترانا بذلك نجمع بين الآيات على خير وجه يعجب المتدبِّر.

ويؤكِّد الإمام الرَّازيُّ ﷺ هذا الجمع فيقول: "قَوْلهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] يَقْتَضِي تَقْدِيمَ خَلْقِ السَّماء عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ تَسْوِيَةُ السَّماء مُقَدَّمَةً عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ، وَعَلَى هَذَا التَّقْدير يَزُولُ التَّنَاقُضُ"(٧).

ويعبِّر الطَّبريُّ ﷺ عن هذه المرحلة بأسلوبه الحواريِّ المثير، فيقول: "وإن قال لنا قائل: أخبِرْنا عن استواء الله جلَّ ثناؤه إلى السَّماء، كان قبل خلق السَّماء أم بعده؟

قيل: بعده، وقبل أن يسويهنَّ سبعَ سموات، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، والاستواء كان بعد أن خلقها دُخانًا، وقبل أن يسوِّيَها سبعَ سموات.

وقال بعضهم: إنما قال: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، ولا سماء، كقول الرجل لآخر:(اعمل هذا الثوب)، وإنما معه غَزْلٌ، فقوله:﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ فإنه يعني هيَّأهنَّ، وخلقهنَّ، ودبَّرهنَّ، وقوَّمهنَّ. والتَّسوية في كلام العرب: التَّقويم، والإصلاح، والتَّوطئة، كما يقال: سوَّى فلان لفلان هذا الأمر: إذا قَوَّمه وأصلحه وَوَطَّأه له. فكذلك تسوية الله جلَّ ثناؤه سمواته: تقويمُه إيَّاهنَّ على مشيئته، وتدبيره لهنَّ على إرادته، وتفتيقهنَّ بعد ارتتاقهنَّ"(٨).

---

(٦) التحرير والتنوير (٣٠/ ٨٥).

(٧) تفسير الرازي (٢/ ٣٨٠).

(٨) تفسير الطبري (١/ ٤٣٠).

المرحلة السادسة: مرحلة دحو (دحي) الأرض:

قرَّر أئمة اللُّغة أنَّ الدَّحو غير الخلق[٩]، وقال الله ﷻ عن هذه المرحلة: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ [النازعات: ٣٠-٣١]، وقد حدثت في الوقت نفسه الذي حدثت فيه المرحلة الخامسة بصورة عامَّة، لكن ذلك كان بعده عند التفصيل.

فالماء أخرجه منها، وأخرج منها المرعى، وتقارن هذا بقول الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحَدِيد: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر: ٦]، وقوله تعالى:﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

وهذه المراحل الستُّ نستفيدها من الجمع بين الآيات، وبذا تبهرك المعرفة القُرآنيَّة في بيان كيفية خلق السَّمَوات والأرض التي لم نشهد خلقها، وبيَّن ذلك الزَّمخشريّ ﵀ ولكن بعبارة غير مبينة، فقال: "جِرْمُ الأرضِ تَقَدَّم خَلْقُه خَلْقَ السَّماء، وأمَّا دحوُها فمتأخر"[١٠]، وقد بيَّنا أنهما خُلِقا معًا، والدَّحو متأخر، وقال محمد رشيد رضا ﵀: "وَلَا مَانِعَ مِنَ الْأَخْذِ بِظَاهِرِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْخَلْقَ غَيْرُ التَّسْوِيَةِ، أَلَّا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي طَوْرِ النُّطْفَةِ وَالْعَلَقَةِ يَكُونُ مَخْلُوقًا، وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ بَشَرًا سَوِيًّا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، كَمَا يَكُونُ عِنْدَ إِنْشَائِهِ خَلْقًا آخَرَ"[١١].

هنا لا بد أن نتساءل: ما معنى كلمة ﴿دحا﴾ في أصل العربيَّة؟

الجواب:

---

(٩) تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ١٤٤)، وقال: "وَالْجَوَاب فِيمَا سَأَلَ عَنهُ السَّائِل أَن الدَحْوَ غيرُ الْخلق، وإنَّما هُوَ البَسْط، والخَلق هُوَ الْإِنْشَاء الأوَّل. فَالله -جلَّ وعزَّ- خلق الأَرْض أوَّلًا غير مَدْحُوَّة، ثمَّ خلق السَّمَاء، ثمَّ دَحا الأَرْض أَي: بَسَطها. والآيات فِيهَا مؤتلِفة وَلَا تنَاقض -بِحَمْد الله- فِيهَا عِنْد من يفهمها. وَإِنَّمَا أُتِيَ الملحِد الطاعن فِيمَا شاكلها من الْآيَات من جِهَة غباوته وغِلظ فهمه، وقلَّة علمه بِكَلَام الْعَرَب". وسترى فهمًا أوسع لكلام اللغويين في معنى (دحاها) إن شاء الله تعالى.

(١٠) الكشاف (١/ ١٢٣).

(١١) تفسير المنار (١/ ٢٠٧).

كلمة (دحا): تدُلُّ عَلَى بَسْطٍ وَتَمْهِيدٍ كما يقول ابن فارس ﵀، ومنه يُقَالُ: دَحَا اللهُ الْأَرْضَ يَدْحُوهَا دَحْوًا: إِذَا بَسَطَهَا، وَيُقَالُ: دَحَا الْمَطَرُ الْحَصَى عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَهَذَا لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَا فَقَدْ مَهَّدَ الْأَرْضَ، وَمِنَ الْبَابِ أُدْحِيُّ النَّعَامِ، وهو الْمَوْضِعُ الَّذِي يُفَرِّخُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَدْحُوهُ بِرِجْلِهِ، ثُمَّ يَبِيضُ فِيهِ، وَلَيْسَ لِلنَّعَامَةِ عُشٌّ، وهي عادةً تَدْحُوه بأن تَبْسُطَه، وتمهِّدَه وتهيِّئه على هيئة تناسِبُ هيئة البيضة(١٢).

ومن خلال كلام المفسِّرين وأرباب اللُّغة(١٣) نجد أن **هذه الكلمة تدلُّ على أمرٍ متحقِّق، وأمرٍ محتملٍ:**

أما الأمر المحقَّق: فالدَّحو يدلُّ على التَّمهيد والبسط والسَّعة بما يتناسب مع من يعيش على الأرض، كالبسط المناسب لبيضة النَّعام، فإنه بَسْطٌ على هيئة البيضة، وليس امتدادًا محضًا، وقد قالوا: اندحى البطن: اتسع، ولا يظهر اتساعه إلا إذا انبسط واستدار للسِّمَن، وترتَّب على دحو الأرض إخراج الماء والمرعى، فالأرض منبسطة لمن يعيش فيها على الرَّغم من كونها على هيئة أقرب إلى البيضة في هيئتها الكلِّيَّة، وأنشدوا لزيد بن عمرو بن نُفَيْل:

دَحَاهـــا، فلمَّـــا رآهـــا اسْـــتَوَتْ على المـاء أَرْسَـى عليهـا الجِبـالا(١٤)

وروى أئمة اللُّغة عن أَعرابيَّة قولَها الذي يظهر أنها أخذته من القرآن الكريم:

---

(١٢) مقاييس اللغة (٢/ ٣٣٣).

(١٣) تهذيب اللغة (٢/ ١٤٤)، لسان العرب (١٤/ ٢٥١).

(١٤) لم يثبت نسبة البيت من الناحية الإسنادية إلى زيد بن عمرو؛ وهيئته أقرب إلى الإسلامية منها إلى العصر الجاهلي، فإن صحَّ إسناده إلى زيد أو إلى أمية بن أبي الصلت فلا يكون إلا بعلمٍ إلهي مأخوذ من نصوص إلهية مما سبق من الكتب والصحف مما لم يحرَّف.

الحمدُ لله الذي أَطاقَا بَنَى السَّماء فَوْقَنا طِباقَا ثم دَحا الأَرضَ فما أَضاقا

"وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ الدَّحْيَ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢] فَفَسَّرَ الدَّحْيَ بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ، لَمَّا اكْتَمَلَتْ صُورَةُ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ثُمَّ السَّماويَّة دَحَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَرْضَ، فَأَخْرَجَتْ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنَ الْمِيَاهِ، فَنَبَتَتِ النَّبَاتَاتُ عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا، وَصِفَاتِهَا، وَأَلْوَانِهَا، وَأَشْكَالِهَا، وَكَذَلِكَ جَرَتْ هَذِهِ الْأَفْلَاكُ فَدَارَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَةِ"(١٥).

ولكن هذا التَّفسير بيان لما ترتَّب على الدَّحيِ لا أنه الدَّحيُ ذاته.

وكل ذلك في اليومين اللذين سوَّى فيهما السَّماء سبعًا.

وأما الأمر المحتمل: فهو التَّدوير البيضاويُّ؛ إذ لا يكون البسط والتَّمهيد لبيضة النَّعام إلا على هيئة بيضة، والحَجَر الذي يُلْعَب به، والحُفْرة التي تحفر لها على هيئة مستديرة في الغالب، فهل يقتضي ذلك استخدام كلمة الدَّحو في التَّهيئة المحضة أم في التَّهيئة لتناسب شكل البيضة؟ يظل الأمر محتملًا غير مجزوم به، فيكون المراد بـ(دحاها): بسطها ومهدها لساكنيها، وهل يقتضي ذلك أن تكون امتدادًا تامًّا، وانبساطًا لا تَعَرُّج فيه أم تكون كُرَة أو قريبة من الكُرَة؟ لا يوجد في كلمة (دحاها) ما يقتضي أحد الأمرين، بل تحتمل الكلمة أن الأرض كُوِّرَت لتناسب هيئة البيضة كما يدحو الظَّلِيم [الذَّكَر من النَّعام] أو النَّعامة الأرض لتناسب هيئة البيضة.

"وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ مَعْنَاهُ: بَسَطَهَا، أَيْ: وَسَّعَهَا وَمَدَّ فِيهَا، وَأَنَّهُ سَطَحَهَا أَيْ: جَعَلَ لَهَا سَطْحًا وَاسِعًا يَعِيشُ عَلَيْهِ النَّاسُ وَغَيْرُهُمْ، فَمَنْ جَعَلَ مَسْأَلَةَ كُرَوِيَّتِهَا وَسَطْحِهَا أَمْرَيْنِ

(١٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٥).

مُتَعَارِضَيْنِ يَقُولُ بِكُلٍّ مِنْهُمَا قَوْمٌ يَطْعَنُونَ فِي الْآخَرِينَ فَقَدْ ضَيَّقُوا مِنَ اللُّغَةِ وَالدِّينِ وَاسِعًا بِقِلَّةِ بِضَاعَتِهِمْ فِيهِمَا مَعًا"(١٦)، والعجيب أن الرَّاغب ﵀ ينصُّ على أنَّ الدَّحي يقتضي الحركة، فيقول: "﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، أي: "أزالها عن مقرِّها"(١٧)، وبالتأمُّل فيه نجد له ما يدلُّ له من لغة العرب، فالمِدْحاةُ لعْبةٌ يَلْعَبُ بِهَا أَهْلُ مكَّةَ؛ والمَدَاحِي والمَسَاوِي، وَهِي أَحْجارٌ أَمْثال القرصَة وَقد حَفَرُوا حفيرةً بقدْرِ ذلكَ الحَجَرِ فيفتحون قَلِيلا، ثمَّ يَدْحُون بتلْكَ الأحْجارِ إِلَى تلكَ الحَفِيرَةِ، فَإِن وَقَعَ فِيهَا الحَجَرُ فقد قَمَر، وإلاَّ فقد قُمِرَ، وَهُوَ يَدْحُو ويَسْدُو إِذا دَحاها على الأَرْضِ إِلَى الحُفْرةِ، والحُفْرةُ هِيَ أُدْحِيَّة(١٨).

هل هناك من إضافة تبين لنا بعض ما يتعلق بخلق السَّمَوات والأرض بعد هذا التفصيل الماتع الذي طوَّف بنا في بدايات الخلق؟

الجواب: القرآن مصدر المعرفة الحقيقيَّة والبيان المعرفي الرَّائع، وإضافة إلى ما سبق عرضه نجد أن الله ﷻ يبيِّن لنا زيادة على ذلك في ثلاثة مواضع قرآنيَّة مايزيد الأمر بصيرة وجلاءً:

أمَّا الموضع الأول فقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، فإن الآية تدلُّ على حركة الشَّمس والقمر بتوازن دقيق يمنع من أن يصطدما، وذلك يقتضي أيضًا ألَّا يبتعد أحدهما عن الآخر بُعْدًا يجعل كلًّا منهما في كونٍ مستقلٍّ عن صاحبه، والأرض التي يصحبها القمر لا بدَّ أن تكون متحركة معهما، وإلا لا بدَّ

(١٦) تفسير المنار (١/ ٢٠٧).

(١٧) المفردات للراغب (ص: ١٦٥).

أن يختفيا عن ساكنيها، ولا تمضِ حتَّى تنظر إلى قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] تراها تعبِّر عن معنيين:

الأول: النَّهار لا يسبق اللَّيل، وهذا معنى صحيح مقرَّر عند السَّامع فلم يصحِّح الله ﷻ فَهْمَه له.

والثاني: اللَّيل لا يسبق النَّهار، وهذا معنى صحَّح الله ﷻ فَهْمَه للسَّامع العربيِّ الذي يظنُّ أن اللَّيل سابق النَّهار، ولذا فاللَّيالي عند العرب مقدَّمة على الأيام، وإنما استفيد هذان المعنيان من ضم قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ إلى قوله قبلها: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾؛ إذ في الكلام اكتفاء يقتضي القول بأن (القمر لا ينبغي له أن يدرك الشمس، ولا النَّهار سابق اللَّيل) (١٩).

وهذا الاتِّزان يظهر بصورةٍ أكبر إن كانت الأجرام كُرويَّة، مع أننا لا نستطيع الجزم بذلك على وجه الدِّقة.

وأما الموضع الثاني: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، ويقول ابن زيد ﷺ في معناه: حين يذهب باللَّيل ويكوِّر النَّهار عليه، ويذهب بالنَّهار ويكوِّر اللَّيل عليه(٢٠)، وأصل التَّكوير في اللُّغة: طرح الشَّيء بعضه على بعض. يقال: كوَّر فلان المتاع، إذا ألقى بعضه على بعض، ومنه كور العمامة. أي: انضمام بعض أجزائها على بعض، فالكاف والواو والراء (كور): أصل صحيح يدلُّ على دور وتجمُّع(٢١).

---

(١٩) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٥).

(٢٠) تفسير الطبري (٢١/ ٢٥٤).

(٢١) مقاييس اللغة (٥/ ١٤٦)، لسان العرب (٥/ ١٥٤).

فقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥] ظاهر في الدِّلالة على كرويَّة الأرض فالتَّكْوِيرَ يدلُّ على الالتفاف المستدير كَتَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ؛ ذلك أنه "ما دام اللَّيل يأتي وراء النَّهار، والنهار يأتي وراء اللَّيل في شبه كُرَة؛ فالذي يأتي عليه اللَّيل والنَّهار شكل الكرة. فكأنَّ كلًّا من اللَّيل والنَّهار دائر وراء الآخر حول كرة "[٢٢].

بصيرة: إن القرآن في سياق تقديم الحقائق الكونيَّة يعطي اللَّمحة بميزان حتى تتَّسع العقول للفهم، ويتلطَّف إليها بالخطاب المحتمل للحقائق التي يتكفَّل العلم بكشفها مع توالي الأيام، بحيث يصلح توجيهه للإنسان عبر العصور المتعاقبة دون أن تعود معانيه المحتملة على بعضها بالنَّقض والمعارضة.

وأما الموضع الثالث فقوله -تعالى ذِكْرُهُ-: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: ١٩-٢٠]، وكونها بساطًا أمرٌ واضحٌ لكلِّ ذي عينين.. ولا ينافي ذلك أن تُكَوَّر مع بقائها مبسوطة، فهي لنا بساط أي بالنسبة لنا.

وربما تتساءل: إذا كان أمر كرويَّة الأرض بهذا الوضوح، فهل قال بذلك أحد من العلماء؟

الجواب: اللَّافت للنَّظر انتشار مبدأ استدارة الأجرام والفَلَك عند علماء المسلمين في وقتٍ مبكِّر، **فقرَّر ابن خُرْدَاذْبَه (ت ٢٧٢ هـ/ ٩١٢م)** في أوَّل كلامه عن «صفة الأرض أنها مدوَّرة كتدوير الكُرَة، موضوعة في جوف الفَلَك كالمُحَّة في جوف البيضة»[٢٣].

(٢٢) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٧٨٥).

(٢٣) المسالك والممالك لابن خُرْدَاذْبَه (ص: ٤).

وجاء في كتاب "المقدسيِّ" (ت٣٧٥ هـ): (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) قوله: "فأما الأرض فإنها كالكُرَة موضوعة في جوف الفَلَك، كالمُحَّة في جوف البيضة". وقال قبله مثل ذلك أيضًا ابن خُرْدَاذْبَه (ت٢٣٢هـ) في كتابه: (المسالك والممالك)، وقال بذلك الإصطخريُّ، والبيروني[٢٣]، والإدريسيُّ، والحَمْويُّ ﷺ، ولنأخذ ما قرَّره الإدريسيُّ ﷺ (ت٥٦٠هـ)، فقال:

«إن الذي تحصل من كلام الفلاسفة وجلَّة العلماء وأهل النظر في علم الهيئة أن الأرض مدورة كتدوير الكُرَة والماء لاصق بها وراكد عليها ركودا طبيعيا لا يفارقها والأرض والماء مستقرَّان في جوف الفلك كالمُحَّة في جوف البيضة»[٢٤].

ونسب المَقْرِيزيُّ ﷺ (ت٨٥٢) هذا القول إلى الجمهور[٢٥].

وأما ابن حزم ﷺ فقصيدته تدلُّ على أنه يرى أن التدوير طبيعة الأجرام السَّماويَّة، حيث يقول:

وَمِنْ هَيئَةِ الفَلَكِ المُسْتَدِيرِ ... وَقَفْتُ عَلَى حَدِّهِ المنْتَظَمْ
وَمَا فيهِ مِنْ فَلَكٍ دَائِرٍ ... وَمِنْ كَوكَبٍ قَاطِعٍ كَالعَلَمْ
فَأَكْبَرُهَا قَاصِدًا مَغْرِبًا ... وَسَائِرُهَا جَهَةَ الشَّرقِ أَمْ
إدارة رب لها منشئٌ ... يصرِّفُها أمرُهُ حيثُ حُم[٢٦]
يُخالفُ ما بين أدوارِهَا ... على سَنَنٍ راتِبٍ مُسْتَتَمْ
لِيَعْلَمَ أهلُ النُّهى أنها ... مدبَّرةٌ لحكيمٍ حَكَمْ

(٢٤) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (١/ ٧).

(٢٥) ينظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخِطط والآثار (١/ ١٩).

(٢٦) أي: حيث قُدِّر لها أن تسير.

وأنْ لـــــيس تختـــــارُ شـــــيئًا ولا لهـــا الحُكْـــمُ بَـــلْ لإلـــهِ الأُمَـــمْ
يُـــــدِيرُ بأزمانهـــــا دهْرَهَـــــا فيثبُـــــتُ مبـــــدؤُهَا للفَهِـــــمْ
وتشـــــهدُ أنَّ الـــــذي صَـــــاغَهَا هُـــوَ الواحِـــدُ الحَـــقُّ بـــارِي النَّسَـــمْ
هـــــو الأولُ المبْتَـــــدِي خَلْقَهَـــــا كمـــا شـــاءَ إذْ شَـــاءَ فـــرْقٌ وَضَـــمْ[٢٧]

وقد كاد ابن حزم رحمه الله يجزم بإجماع المسلمين في إثبات هذه القضيَّة حتى عقد فصلًا لذلك، فقال: «مطلب بَيَان كرويَّة الأَرْض... إِن أحدًا من أَئِمَّة الْمُسلمين الْمُسْتَحقِّين لاسم الْإِمَامَة بِالْعلمِ رضي الله عنهم لم ينكروا تكوير الأَرْض، ولَا يُحفظ لأحد منهم في دَفْعه كلمة، بل الْبَرَاهِين من الْقُرْآن وَالسُّنَّة قد جَاءَت بتكويرها قال الله عز وجل: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، **وَهَذَا أوضح بَيَان فِي تكوير بَعْضِهَا على بعض، مَأْخُوذ من كور الْعِمَامَة، وَهُوَ إدارتها، وَهَذَا نَصٌّ على تكوير الأَرْض ودوران الشَّمس كَذَلِك**»[٢٨].

وها هو الإمام الرَّازيُّ رحمه الله (ت٦٠٦هـ) يقول:

"**وَأَيْضًا الْأَرْضُ كُرَةٌ**، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكُلُّ وَقْتٍ يُمْكِنُ أَنْ يُفْرَضَ فَهُوَ صُبْحٌ لِقَوْمٍ، وَظُهْرٌ لِثَانٍ، وَعَصْرٌ لِثَالِثٍ، وَمَغْرِبٌ لِرَابِعٍ، وَعِشَاءٌ لِخَامِسٍ، وَمَتَى كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَمْ تَكُنِ الْكَعْبَةُ مُنْفَكَّةً قَطُّ عَنْ تَوَجُّهِ قَوْمٍ إِلَيْهَا مِنْ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْعَالَمِ لِأَدَاءِ فَرْضِ الصَّلَاةِ، فَكَانَ الدَّوَامُ حَاصِلًا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ"[٢٩].

(٢٧) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) (ص: ٣٧٠، ٣٧١).

(٢٨) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٧٨).

(٢٩) تفسير الرازي (٨/ ٣٠١).

وأما ابن تيمية ﵀ **فاسمع إليه يحدِّثك عن كرويَّة الأرض باعتبارها خبرًا مقطوعًا به**، ثم يكلِّمك كأنما هو خبير جغرافيٌّ، ويحدِّث عن تقبيب الماء في الأرض وعدم سقوطه، وذلك قبل رحلة ماجلان، ونظرية نيوتن، وتخرصات أرباب الإفك والهذيان، فيقول:

" اعْلَمْ أَنَّ (الْأَرْضَ) قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهَا كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ، وَهِيَ فِي الْمَاءِ الْمُحِيطِ بِأَكْثَرِهَا؛ إذْ الْيَابِسُ السُّدُسُ وَزِيَادَةٌ بِقَلِيلٍ، وَالْمَاءُ أَيْضًا مُقَبَّبٌ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِلْأَرْضِ ... وَإِذَا كَانَتْ سَمَاءُ الدُّنيَا فَوْقَ الْأَرْضِ مُحِيطَةٌ بِهَا فَالثَّانية كُرَوِيَّةٌ، وَكَذَا الْبَاقِي... **وَالْأَفْلَاكُ مُسْتَدِيرَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ ؛ فَإِنَّ لَفْظَ (الْفَلَكِ) يَدُلُّ عَلَى الِاسْتِدَارَةِ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى:** ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] **قال ابْنُ عَبَّاسٍ** ﵄: **فِي فَلْكَةٍ كَفَلْكَةِ الْمِغْزَلِ**. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: تَفَلَّكَ ثَدْيُ الْجَارِيَةِ إذَا اسْتَدَارَ، وَأَهْلُ الْهَيْئَةِ وَالْحِسَابِ مُتَّفِقُونَ عَلَى ذَلِكَ"(٣٠).

وأمَّا ابن خلدون ﵀ فهو يورد هذه المعلومة مسلَّمة لا شية فيها فيقول: " اعلم أنه قد تبيَّن في كتب الحكماء النَّاظرين في أحوال العالم أنَّ شكل الأرض كُرَويٌّ"(٣١).

سبحان من رفعَ السماءَ بأمرهِ ... غيرِ أعمدةٍ تكونُ عمادا

وكأنما هي خيمةٌ مضروبةٌ ... جعلَ الكواكبَ حولها أوتادًا(٣٢)

نعود إلى المراحل الستِّ التي حدثتنا عن بداية خلق السَّمَوات والأرض، فقد تتساءل عمَّا رواه الطَّبريُّ ﵀ **عن ابن إسحاق** ﵀ **خبرًا في خلق السَّمَوات والأرض يوافق هذه المراحل التي رتَّبتها هنا فيقول:** "قال محمد بن إسحاق ﵀: كان أوّلَ ما خلق الله تبارك وتعالى: النُّورُ والظُّلمةُ، ثم ميَّز بينهما، فجعل الظُّلمة ليلًا أسود مظلمًا، وجعل النور نهارًا مضيئًا

(٣٠) مجموع الفتاوى (٥ / ١٥٠).

(٣١) مقدمة ابن خلدون (ص: ٥١).

(٣٢) قائل البيتين مجهول. ينظر: غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، (ص: ٤٦).

مبصرًا، ثم سمك السَّمَوات السَّبع من دُخان -يقال، والله أعلم، من دخان الماء- حتى اسْتَقْلَلْنَ ولم يُحْبَكْنَ، وقد أغطش في السَّماء الدُّنيَا ليلها، وأخرج ضُحاها، فجرى فيها اللَّيل والنَّهار، وليس فيها شمس، ولا قمر، ولا نجوم. ثم دحا الأرض وأرْساها بالجبال، وقدَّر فيها الأقوات، وبثَّ فيها ما أراد من الخلق، ففرَغ من الأرض وما قدر فيها من أقواتها في أربعة أيام. ثم استوى إلى السَّماء وهي دخان -كما قال- فحَبَكَهُن، وجعل في السَّماء الدُّنيَا شمسَها، وقمرَها، ونجومَها، وأوحى في كلِّ سماء أمرها، فأكمل خلقهنَّ في يومين، ففرغ من خلق السَّمَوات والأرض في ستَّة أيام، ثم استوى في اليوم السَّابع فوق سمواته، ثم قال للسَّموات والأرض: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ [فصلت: ١١] لِمَا أَرَدْتُ بِكُمَا، فَاطْمَئِنَّا عليه طوعًا أو كرهًا، قالتا: أتينا طائعين؟(٣٣).

الجواب: تمَّت المراحل الستُّ كلُّها في ستَّة أيام، وتوافق هذا مع قوله -تعالى جده-: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ [ق: ٣٨].. وبذا اجتمعت الآيات في صورةٍ واضحة ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

أما ابن إسحاق رحمه الله فقد أخبر أنَّ الله -جل ثناؤه- استوى إلى السَّماء -بعد خلق الأرض وما فيها- وهن سبع من دُخان، فسوَّاهن كما وَصف. وإنما استشهدنا لقولنا الذي قلنا في ذلك بقول ابن إسحاق رحمه الله، لأنه أوضح بيانًا -عن خلق السَّمَوات أنهن كُنَّ سبعًا من دخان قبل استواء ربِّنا إليها لتسويتها- من غيره، وأحسنُ شرحًا لما أردنا الاستدلال به، من أن معنى السَّماء التي قال الله -تعالى ذِكْرُهُ- فيها: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] بمعنى

(٣٣) تفسير الطبري، طبعة دار الحديث (١/ ٣١٤)، وقال إسلام منصور: "ضعيف؛ مداره على سلمة بن الفضل الأبرش الأنصاري ...ضعيف، والأسانيد إليه كلها ضعيفة، فسند المصنِّف هنا فيه محمد بن حميد الرازي ضعيف".

الجميع على ما وصفنا، وأنه إنما قال -جلَّ ثناؤه-: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] إذ كانت السَّماء بمعنى الجميع، على ما بيَّنَّا"(٣٤).

وقد ذكر ابن إسحاق ﷺ خلق النُّور والظُّلمة ابتداء -كما في العهد القديم- وذكر أنَّ الدُّخان الذي تكوَّنت منه السَّماء دخان الماء، ولا يوجد عندي في الوقت الحاضر تحققٌ لصحَّة هذه المقدِّمة من ابن إسحاق، وقد يشير إلى صِحَّة ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، فكأن الماء مخلوقٌ قبلًا، وإن كان نظم هذه الآية من سورة هود عليه السلام ما زال محتملًا(٣٥).

---

(٣٤) تفسير الطبري (١/ ٤٣٣).

(٣٥) وللعلامة العَينيّ في عمدة القاري (١٥/ ١٠٩) كلام نفيس في مسألة الجمع بين هذه الروايات التي تذكر الأوَّليَّة في الخلق، وذلك عند شرحه حديث ﷺ: «كانَ الله ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ على الماءِ، وكتَبَ فِي الذِّكْرِ كلَّ شَيْءٍ وخَلَقَ السَّمَواتِ والأرْضَ» قال: قَوْله: (وَكَانَ عَرْشه على المَاء)، أَي: لم يكن تَحْتَهُ إلاَّ المَاء، وَفِيه دَلِيل على أَن الْعَرْش وَالْمَاء كَانَا مخلوقين قبل السَّمَوَات وَالْأَرْض. فَإِن قلت: بَين هَذِه الْجُمْلَة وَمَا قبلهَا مُنَافَاة ظَاهِرَة؛ لِأَن هَذِه الْجُمْلَة تدل على وجود الْعَرْش، وَالْجُمْلَة الَّتِي قبلهَا تدل على أَنه لم يكن شَيْء. قلت: هُوَ من بَاب الْإِخْبَار عَن حُصُول الجملتين مُطلقًا، وَالْوَاو بِمَعْنى: ثمَّ... وَفِي قَوْله: وَكَانَ عَرْشه على المَاء، دلَالَة على أَن المَاء وَالْعرش كَانَا مبدأ هَذَا الْعَالم لكَوْنهم خُلِقَا قبل خلق السَّمَوَات وَالْأَرْض، وَلم يكن تَحت الْعَرْش إِذْ ذَاك إلاَّ المَاء. فَإِن قلت: إِذا كَانَ الْعَرْش وَالْمَاء مخلوقين أَوَّلًا فَأَيُّهمَا سَابق فِي الْخلق؟ قلت: المَاء لما روى أَحْمد وَالتِّرْمِذِيّ مصححًا من حَدِيث أبي رزين الْعقيلِيّ مَرْفُوعًا: «إِن المَاء خلق قبل الْعَرْش»، وروى السُّديُّ فِي تَفْسِيره بأسانيد مُتعَدِّدَة: أَن الله تَعَالَى لم يخلق شَيْئًا مِمَّا خلق قبل المَاء. (فَإِن قلت) روى أَحْمد وَالتِّرْمِذِيّ مصححًا من حَدِيث عبَادَة بن الصَّامِت ﷺ مَرْفُوعًا: «أول مَا خلق الله الْقَلَم، ثمَّ قَالَ: اكتب، فَجرى بِمَا هُوَ كَائِن إِلَى يَوْم الْقِيَامَة»، وَاخْتَارَهُ الْحسن وَعَطَاء وَمُجاهد، وَإِلَيْهِ ذهب ابْن جرير وَابْن الْجَوْزِيّ ﷺ، وَحكى ابْن جرير عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق ﷺ أَنه قَالَ: «أول مَا خلق الله تَعَالَى النُّور والظلمة...»، وَقيل: أَول مَا خلق الله تَعَالَى نور مُحَمَّد ﷺ. قلت: التَّوْفِيق بَين هَذِه الرِّوَايَات بِأَن الأولية نسبي، وكلُّ شَيْء قيل فِيهِ إِنَّه أول فَهُوَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا بعْدهَا.

وذكر الطبري ﷺ في تاريخه (١/ ٣٤، وما بعدها) أن الأولى بالصَّواب قول من قال: القلم، ثم خلق سحابًا رقيقًا، وهو الغمام، ثم العرش. وقيل: خلق الماء قبل العرش.

وذهب بعض أهل العلم إلى أوجهٍ أُخَر في الجمع بين الآيات، ومن هذه الأوجه:

ثم للتَّعظيم لا للتَّرتيب، ليبين ذلك ما بين الخلقين من التَّفاوت، وفضلَ خلقِ السَّمَوات على خلق الأرض،، وتقديم الأرض هنا لأنها أدلُّ؛ لشدة الملابسة والمباشرة"[٣٦]، فليست (ثُمَّ) للتَّراخي في الوقت كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧]، "وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ [القلم: ١١-١٣] فَإِنَّ كَوْنَهُ عُتُلًّا وَزَنِيمًا أَسْبَقُ فِي الْوُجُودِ مِنْ كَوْنِهِ هَمَّازًا مَشَّاءً بِنَمِيمٍ؛ لِأَنَّهُمَا صِفَتَانِ ذَاتِيَّتَانِ بِخِلَافِ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾"[٣٧]، وبذا يتحقَّق المقصد القرآنيُّ في المحافظة على اللُّغة العربية: قيل (ثم) لا تدلُّ على التَّرتيب الزَّمَنيِّ، بل على التَّرتيب الرُّتبيِّ الخبريِّ، وهذا أسلوبٌ عربيٌّ مبينٌ تجده مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، فالوقت الزَّمانيُّ للزَّبور ليس بعد القرآن الذي سمَّاه هنا (الذِّكْر)، وإنما يسمَّى هذا ترتيبًا ذِكريًّا، ومثله قول الشاعر:

إن الـــذي سَـــادَ ثُـــمَّ سَـــادَ أَبُـــوْهُ ثُـــمَّ سَـــادَ قَبْـــلَ ذَلـــكَ جَـــدُّهْ[٣٨]

وهذا المقصد -وإن صحَّ- لكنه لا يظهر لي هنا للوضوح الشَّديد في التَّرتيب الخَلْقيِّ في سورة فُصِّلت.

وربما تتساءل هنا عن الماء بالنِّسبة لخلق السَّمَوات والأرض، فمتى كان موعده؟

الجواب: الماء قبل خلق السَّمَوات والأرض:

(٣٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٢٣).

(٣٧) التحرير والتنوير (١/ ٣٨٣).

(٣٨) البيت لأبي نواس في ديوانه (ص: ٤٩٣)، ولفظه: (قل لم سَاد ثم ساد أبوهُ... قبله، ثم قبل ذلك جدُّهْ.

هذا التَّجوال الماتع في الأفكار العلميَّة التي تقدِّمها لنا المعرفة القُرآنيَّة حول بداية الخلق الكونيِّ، وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ ترتيب خلق الكون بصورةٍ دقيقة؛ إذ يحدِّثنا عِمْرَان بن حُصَيْنٍ عن بداية خلق السَّمَوات والأرض في الحديث النبويِّ، فيقول: إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ. فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ». قَالُوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا. فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ». قَالُوا: قَبِلْنَا. جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ مَا كَانَ. قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ». ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ فَقال: يَا عِمْرَانُ أَدْرِكْ نَاقَتَكَ فَقَدْ ذَهَبَتْ، فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُهَا، فَإِذَا السَّرَابُ يَنْقَطِعُ دُونَهَا، وَايْمُ اللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَلَمْ أَقُمْ"(٣٩).

هنا لا بدَّ أن نتساءل عن هيمنة القرآن على الكتب السَّابِقَة، فكيف تظهر هذه الهيمنة، وبها تظهر عظمة البيان القرآنيِّ الخاتم؟

والآية مع البيان النَّبويِّ أشمل وأكثر بيانًا في تعظيم جلال الله ﷻ مما ورد في أول سفر التَّكوين من التَّناخ:

١ : ١ في البدء خلق الله السَّمَوات والأرض.

---

(٣٩) البخاري (٧٤١٨)، وهنا نذكر حديثًا ورد عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ في وصف بدايات خلق ما على الأرض حيث قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: « خَلَقَ اللهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ». مسلم (٧١٥٥) إلا أنني أتوقف في الجزم بصحته للاختلاف في رفعه وقطعه، ولذا قال ابن كثير رحمه الله (٢/ ٢١٥): "وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَرَائِبِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهِ عَلِيُّ ابْنُ الْمَدِينِيِّ، وَالْبُخَارِيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْحُفَّاظِ، وَجَعَلُوهُ مِنْ كَلَامِ كَعْبٍ رضي الله عنه ، وَأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه إِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ كَلَامِ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَإِنَّمَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ الرُّوَاةِ فَجَعَلُوهُ مَرْفُوعًا، وَقَدْ حَرَّرَ ذَلِكَ الْبَيْهَقِيُّ"، وعلَّق شعيب الأرناؤوط على هذا الحديث فقال: "الأصحُّ أن هذا الحديث موقوف على كعب الأحبار، وليس من قول النَّبيِّ ﷺ".

فلم يشر إلى موضوع الماء، بل أَوْهَمَ ما بعده أن الماءَ كان مع خلق الأرض، ولم يشر إلى تفصيل خلق السَّمَوات والأرض، بل مضى يتكلَّم عن تفاصيل ما خلق الله ﷻ في الأرض وما بينها وبين السَّماء فقط، فقال مثلًا:

١: ٢ وكانت الأرض خَرِبةً وخالية، وعلى وجه الغَمْر ظُلْمة وروح الله يَرِفُّ على وجه المياه.

١: ٣ وقال الله: "ليكن نور"، فكان نورٌ.

١: ٤ ورأى الله النُّور أنه حسن، وفَصَلَ الله بين النور والظلمة.

١: ٥ ودعا الله النُّور نهارًا، والظُّلمة دعاها ليلًا، وكان مساءٌ، وكان صباحٌ يومًا واحدًا.

وبعد أن بيَّن أنه خلق المخلوقات قال:

١: ٢٥ فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبَّابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن.

١: ٢٦ وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلَّطون على سمك البحر، وعلى طير السَّماء، وعلى البهائم، وعلى كلِّ الأرض، وعلى جميع الدَّبَّابات التي تَدِبُّ على الأرض.

١: ٢٧ فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه، ذَكَرًا وأنثى خلقهم.

١: ٢٨ وباركهم الله وقال لهم: أَثْمِرُوا واكْثُرُوا واملؤوا الأرض، وأخضعوها، وتسلَّطوا على سمك البحر، وعلى طير السَّماء، وعلى كلِّ حيوان يَدِبُّ على الأرض(٤٠).

وفي آخر ذلك قال:

(٤٠) تفسير سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري (ص: ١٣٧ – ١٤٨).

٢: ٢ وفرغ الله في اليوم السَّابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السَّابع من جميع عمله الذي عمل.

٢: ٣ وبارك الله اليوم السَّابع وقدَّسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا.

٢: ٤ هذه مبادئ السَّمَوات والأرض حين خلقت يوم عمل الرَّبِّ الإله الأرض والسَّمَوات(٤١).

وقد نقل البقاعيُّ رحمه الله في كتابه: "نظم الدُّرر" هذا الذي نقلته من سفر التَّكوين إلا أنك تجد بعض الاختلافات المعنويَّة واللَّفظيَّة بين ما رآه في وقته، وما ننقله الآن(٤٢).

وموضوع الاستراحة موضوع موجع، فهو ينتقص من صفات الله ﷻ، فما مسَّ الله ﷻ من لُغُوب حتى يستريح، ولكن جفاء المحرِّفين يدفعهم إلى تغيير الألفاظ التي سمعوها إلى طريقتهم المجرمة في الكلام عن الله ﷻ، وصفاته، تعالى الله عما يقول الظَّالمون علوًّا كبيرًا.

هنا تشعر بالانبهار العظيم بالكتاب المهيمن الذي يوضِّح لك الصُّورَة الكاملة عن خلق السَّمَوات والأرض، كما يُظْهِر لك بقوَّة أنك ينبغي أن تعبد الله ﷻ الذي خلق لك ما في الأرض جميعًا، ودبَّر أمر السَّماء، فسوَّاهن سبع سموات.

---

(٤١) تفسير سفر التكوين، القس أنطونيوس فكري (ص: ١٥٥).

(٤٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١/ ٢٦٣).